حقيقة الإعجاز القرآني بين الانزياح والمجاز

د| محمد فؤاد ديب السلطان(*)

التمهيد

تفقد الكلمة المفردة في النص، طبيعتها المحددة وتستحيل إلى خلق آخر بطبيعة أخرى، من هنا فإن المبدع لابد له أن يكون على قدر كبير من المعرفة بالخصائص الإفرادية والتركيبية للغة، التي ينسج بها نصه (فلا يمكن أنْ يكون هناك إبداع إلاَّ حينما يوجد تفكير عميق في الطبيعة التركيبية للغة، وإلا حينما يوجد خلق جديد لهذه التركيبات)[1] وقد أشار الدكتور صلاح فضل إلى أهمية البنية التركيبية، حينما دعا إلى بذل الجهد في تحليل أنواع العبارات ونسبة توظيفها للصيغ المختلفة وكيفية صناعتها للمجازات والرموز ونوع التفكير الماثل، خاصة فيما ينشب بينها من علاقات، باعتبارها أكثر خصوبة وجدوى من تحليل الأساليب، بدلاً من استقصاء ما يسمى بالمعجم اللغوي للمبدع، بغية تحديد عدد من الدوال المكرورة التي تتمتع بنسبة عالية في نصوصه، لأنه إجراء لا يكشف عن أهم مولدات الدلالة في الصيغ النصية؛ إذ إنَّ هذه الدوال ذاتها ترد مرة باعتبارها رموزاً لغيرها وترد مرات أخرى على حقيقتها، الأمر الذي يؤدي إلى اختلاف طاقاتها التعبيرية طبقاً لمواقعها والتركيبات المتضمنة لها"[2] فعندما يسقط المبدع اختياره على تركيب ما، فإنه ينفي ـ في الوقت نفسه ـ أشكالاً عديدة وممكنة، وبهذا الاختيار تتحدد القيمة الأدبية للعمل الفني، لما له من ميزة تفوق اختيار المفردات التي ليس فيها تفاوت كبير بين المبدعين، فالكلمات ليس لها صفات خاصة فلكل كلمة

(*) أستاذ الأدب والنقد المساعد بقسم اللغة العربية ـ جامعة الأقصى ـ غزة ـ فلسطين.

(١) د. محمد عبد المطلب، جدلية الإفراد والتركيب، مكتبة الحرية الحديثة ١٩٨٤ ص١٤٢.

(٢) د. صلاح فضل، أساليب الشعرية ص١٦٨ بتصرف.

مجال" من التأثيرات الممكنة يختلف طبقاً للظروف التي توجد فيها.. والتأثير الذي تولده الكلمة فعلاً؛ عبارة عن توفيق بين أحد تأثيراتها الممكنة، والظروف الخاصة التي توجد فيها"[1] إذن السياق هو الذي يُعيِّن قيمة الكلمة" إذ إن الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديداً مؤقتاً، والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة، بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدل عليها، والسياق أيضاً هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها،هو الذي يخلق لها قيمة حضورية"[2].

"يرى أرسطو أن لكل كلمة معنى جعلت له...وهذا يفسر بوضوح قدرة الكلمات، مهما جمدت معاني الألفاظ في المعاجم على خلق معانٍ جديدة، وهذا هو صلب عملية التوليد البلاغي ... ويقترح ريتشاردز فكرة حركة المعنى التي لا تتبين إلا بانتهاء الجملة أو المقال؛ إذ يتوقف ظهور المعاني الجديدة على طبيعة العلاقات بين كل حد من حدود النسق، وغيره من الحدود[3].

فالكلمة في النص القرآني أكبر قيمة من تلك التي في نصوص اللغة العادية والأدبية، وليس صعباً أن نلاحظ أنه كلما كان النص أكثر أناقة وصقلاً، كانت الكلمة أكبر قيمة وكانت دلالتها أرحب وأوسع.

يستخدم النص القرآني ـ إذن ـ اللغة استخداماً خاصاً، فالكلمات فيه يقصد بها ما وراء مدلولها، حيث لا يقف المبدع أمام معانيها المعجمية مثل: وقفة الناثر أو الشاعر، وإنما يصبح للكلمات في النص القرآني معانٍ وظلال تتعدى بكثير المعنى المعجمي، ومن ثم فإن الكلمة في حد ذاتها ليست هي المحك المباشر في النص القرآني ولكن الطاقة أو

---

(١) ريتشاردز مبادئ النقد الأدبي ترجمة د. مصطفى بدوي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ص١٩١، بتصرف

(٢) د. مصطفى السعدني، البنيات الأسلوبية ص ٦٩.

(٣) د. صلاح فضل ـ بلاغة الخطاب وعلم النص ـ ص ١٧٠.بتصرف.

العاطفة أو الحركة التي يسبغها المبدع عليها، هي التي تحدد قيمتها من خلال الكيفية الخاصة في تعامل المبدع مع أداته "وتتبدى هذه الكيفية في طرائق مخصوصة تؤلف بين الكلمات وتنتظمها، للوصول إلى أنظمة وأنساق وتراكيب وأبنية تفجر الطاقة الجمالية في الواقع، وتخلق موازاة رمزية لهذا الواقع"[١].

وإذا كانت اللغة العربية تخضع نظرياً لنظام معين في ترتيب مفرداتها، فإن هذا النظام على المستوى الفعلي، قد يتعرض لنوع من الانتهاك أو التغيير، وهو انتهاك له ما يبرره على المستوى الفني للغة، حيث "إن تحريك الكلمة أفقياً إلى الأمام أو إلى الخلف، ساعد مساعدة بالغة في الخروج من طابعها النفعي إلى طابعها الإبداعي"[٢].

"إنَّ البنية اللغوية في النص لا تتحدد بالكلمات، بل بالصيغ، وعندما يتم تفكيكها إلى وحدات دنيا، بحثاً عن أعدادها وحقولها وتبادلاتها، تكون قد فقدت مواقعها في النص، وهي تمنحها أبرز فعاليتها الوظيفية موسيقياً ودلالياً، فإحصاء قوالب الطوب المتخلف عن هدم المعبد، لا يعطينا سوى فكرة مضيئة عما أقيم من شعائر وصلوات.

وإن هذه المواقع المفقودة ذاتها هي التي يترتب عليها حساب الكلمات، وهل توضع في جانب الدوال أو المدلولات فالزهرة مثلاً عندما تشير إلى النبات تكون دالاً مطابقاً لمدلوله لكنها عندما تشير إلى الفتاة المتفتحة تقع فحسب في جانب الدال، ويكون المدلول الغائب من العبارة والمفهوم منها موازياً في حضوره المعنوي للشق الأول، وإن لم يدخل في العد الإحصائي. فإذا تعددت الدوال، وأشارت إلى مدلول واحد أو تزاحمت المدلولات في دال واحد ارتبكت الأرقام وفقدت معناها المباشر، وشبكة العلاقات المجازية والرمزية المعقدة في النص ترتكز وظائفها الجمالية في تعقيد نسيجها الدلالي المتميز"[٣].

---

(١) د. عبد المنعم تليمه ـ مداخل إلى علم الجمال الأدبي ـ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٨٠ص٩٩.

(٢) د. محمد عبد المطلب، جدلية الإفراد والتركيب،مرجع سابق، ص١٤٣.

(٣) د. صلاح فضل ـ أساليب الشعرية، مرجع سابق،ص ٤٥ بتصرف.

التجاوز (الانزياح):

إن النص القرآني يمتاز بتجاوز (بانزياح) مستمر عن معايير التعبير الفني المألوف ويمكن بدءاً تعيين حدود هذا التجاوز (الانزياح).

هناك درجة تجاوز (انزياح) حرجة ـ مختلفة بدون شك من قارئ لآخر ـ، إذ بتجاوزها يكف النص عن إنجاز وظيفته باعتبار لغته لغة دالة، وربما كان الغموض الحاصل بين النص والمتلقي حاصلاً بسبب تجاوز النص بسهولة لهذه العتبة.

"ولا يتحقق التجاوز (الانزياح) إلاّ بقدر تأمل اللغة، وإعادة خلق اللغة مع كل خطوة، وهذا يفترض تكسير الهياكل الثابتة للغة وقواعد النحو وقوانين الخطاب"[1].

وعلى الرغم من اختلاف علماء الجمال والنقاد الشديد حول طبيعة العلاقة بين لغة النص القرآني واللغة الأدبية، إلا أنني قمت بتتبع بعض النصوص القرآنية موضع الدراسة للوقوف على ما يعرف في الدراسات الأسلوبية الحديثة بالتجاوز (الانزياح).

والمقصود بالتجاوز (الانزياح) إحالة الأشياء عن حقائقها، وإدخالها في غير أجناسها، وبعبارة أخرى إنه انحراف عن نمط معياري مألوف نظرياً وعملياً. نقل اللفظ إذن لا يفسر الإحساس بالأشياء الذي نراه في هذه الصورة من اختفاء صفات وأحوال وخواص، وكأن الأشياء تخلق به خلقاً جديداً، وتصير كوائن أخرى، وهكذا تتداخل الأشياء، ويمتص بعضها مزايا بعض،وتنهدم حدود الماهيات وترى شيئاً ثالثاً هو نتاج امتزاج الشيئين اللذين نسميهما طرفين مختلفين.

التجاوز (الانزياح) أقدر على خلق صورة أو فكرة موحية، تعج بأطياف وأرواح منبعثة عن هذه الكوائن والعوالم، فيها من السعة والمرونة والحيوية ما يجعلها قادرة

---

(١) كوهين ـ جان، بنية اللغة الشعرية ص١٧٦، بتصرف.

على الإبانة عن كثير من الغوامض والخوافي الملبسات، وكشف تلك الأسرار، لنعرف أن التنزيل الحكيم بلغ الذروة في كل لفظة، وفي كل عبارة، وفي كل آية.

إن المبدع للنص القرآني يمضي إلى بعض العلاقات المعتادة خارج النص، فينقلها منحرفاً بها عن طبيعتها، ليقدم للمتلقي نمطاً عظيماً ورائعاً، وقد دعا النقد المعاصر هذه العملية بمفارقة التطبيع، وجعلها حين ترد ناضجة ناجحة ـ وهي كذلك في النص القرآني ـ فيصلاً بين كلام الله المعجز، وكلام البشر الزخرفي المموه.

وبهذا نؤكد أن كثيراً من مواطن الإعجاز، مؤلف من جملة تجاوزات (انزياحات) داخل النص القرآني، تؤدي للوصول بالنص القرآني إلى توازن يستحضر خطاباً متعدد القيم.

وعلى الرغم من قلة تردد بنيات هذا المحور في الخطاب الديني بصفة عامة، فإنه يشكل ظاهرة أسلوبية متميزة في النص القرآني.

من هنا يتضح لنا الفرق الجوهري بين النص القرآني وكلام البشر، يكمن ذلك في كيفية التعامل مع اللغة باعتبارها كائناً حياً، فيه حنان ووجد ومراودة لا تكل. فالنص القرآني ينفرد بالقدرة على تصريف الكلام وتوظيفه من خلال التجاوز (الانزياح)، فيمنحه الكلام طاقاته المتفجرة التي يتولد عنها الإعجاز، الذي هو نتاج عملية بناء علمية دقيقة للغاية، فهي التي تضع حداً فاصلاً بين النص القرآني وغيره من كلام البشر.

فالله سبحانه وتعالى وحده القادر على كسر المساحة التي يتحرك في رحابها الخطاب العادي، فيتحقق للنص القرآني خرق العادة والانعتاق من النمطية، ومن ثم يرتقي إلى ذرى تعبيرية جمالية تسبح بعظمة الله، وتشهد بإعجاز كلامه.

التجاوز (الانزياح) والنص القرآني:

تحتاج التعبيرات الاصطلاحية الشائعة في بلاغتنا العربية لا سيما في القرآن إلى من يلم شعثها وينظم أطرافها، على ضوء دراسات جديدة، تتجاوز مفهوم الاصطلاحات البلاغية القديمة، من مجاز وأساليب ومسميات لا حصر لها، وما يدور حولها من قضايا خلافية في أغلب الأحيان.

إن الدراسات الجديدة القائمة على ما يمكن تسميته (التجاوز) أو (الانزياح) سيجنبنا كثيراً من الخلاف حول تلك القضايا، وسيلم ذلك الشعث المتفرق من المسميات التي يتيه فيها المتلقي، فضلاً عما تفتحه تلك الدراسات من آفاق جديدة تساير التجدد المستمر في النص القرآني على مر العصور.

ولكي نعد أيَّ تحليل أدبياً، فإن على التحليل أن يكون قادراً على تفسير القيمة الجمالية لعمل ما، وبالمثل لا يعد أي تحليل علمي مرضياً ما لم يقدم تفسيراً سليماً لحقيقة الموضوع وقيمته.

ونحن في الواقع نقدم في هذا البحث على أمر أشد خطورة من العمل الأدبي والعلمي؛لأننا لا نستهدف تفسير القيمة العلمية والجمالية لعمل بشري، وإنما نبحث في أسباب الإعجاز القرآني وأسراره البيانية.

فالقرآن الكريم يتفرد بأن قارئه أو سامعه ـ مهما كانت فطنته ـ لا يستطيع أن يسبق النص القرآني باستشرافه لمعانيه وأغراضه مثلما هو الحال في النصوص الأدبية، فقد أحكم الله إعجاز نظمه، بما يجعل المتلقي عاجزاً عن ملاحقة النص القرآني، وليس ذلك مرده إلى الإغراق أو الإبعاد، أو إقامة حواجز من غرائب الألفاظ وخفاء دلالاتها، أو اصطناع وجوه من البيان لا تعرفها لغة العرب، وإنما مرده إلى كثرة التصرف في فنون الكلام، ومباغتة المتلقي بما لا يتوقعه. والتجاوز به عما كان يستشرف إلى ما لا يقع منه

بخلد، ولا يسبق إلى خاطر وهو ما نطلق عليه التجاوز " الانزياح ".

إذ يضعنا أمام معان جديدة، غير التي سبقت إلى فهمنا أول مرة، حتى نرى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهاً عدة كلها صحيح أو محتمل للصحة. " كأنما هي فص من الماس، يعطيك كل ضلع منه شعاعاً، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة، بهرتك ألوان الطيف كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع؟!، ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك، رأي منها أكثر مما رأيت، وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان، يأخذ كل منه ما يسر له، بل ترى محيطاً مترامي الأطراف لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال"[1].

ولما كانت البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال،ولكل مقام مقال،ولكل حال كلام يناسبها ويلاؤمها،ومجيء الكلام مطابقاً لمقتضى الحال هو الأصل في كلام العرب؛ وقد يخالف هذا الأصل فيأتي الكلام خارجاً ومخالفاً لما يقتضيه ظاهر الحال، وتلك المخالفة لا تكون بالطبع إلا لأسرار ومقاصد يقصد إليها الشارع عز وجل.

كما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾[2] حيث غوير فيه النظم وخولف مقتضى الظاهر بأن يقال: أو جئتم من الغائط، ولا شك أن وراء كل انزياح غرضاً بلاغياً، ليس بالضرورة أن نقف عليه، وإن كان ذلك لا يمنع أن نجتهد؛ إذ أنَّ الإنسان لا يقوم بقضاء الحاجة إلا منفرداً والله أعلم.

ينبغي أن نعلم أن هذه المخالفة؛ إنما هي لظاهر الحال، فالكلام وإن خالف ما يقتضيه الظاهر فإنه قد وافق ما يقتضيه المعنى ويتطلبه، ولا يظهر ذلك إلا لمن سبر أغوار المعاني، وتغلغل بفكره في أعماق التراكيب، فهو الذي يتجلى له ما وراء مخالفة الظاهر

---

(١) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن ص ١١٠ ـ ١١١.

(٢) الآية ٤٣ من سورة النساء، والآية ٦ من سورة المائدة.

من أسرار ومزايا وأهداف يقصد المولى عز وجل إلى تحقيقها، نعلم بعضها وقد لا نعلم الكثير من تلك الأسرار الإلهية كما في الحروف المقطعة في فواتح السور مثل: (ألم، حم، كهعص ...) وغيرها.

وصور خروج الكلام عن طرائق النظم اللغوية المألوفة كثيرة، وهو ما نطلق عليه التجاوز (الانزياح).

التلقي وأثره في الإعجاز القرآني:

إن القدماء الذين عالجوا مسألة علاقة اللغة بالفكر، عالجوها على أساس المتكلم؛ أي: المرسل، لا على أساس السامع؛ أي: المتلقي، وهي مسألة خطيرة عند التأمل خاصة حينما نفكر في علاقة النظم بمسألة الإعجاز القرآني، إذ إن التأثير والهداية يقومان إلى حد كبير على السامع. والحال أن العملية الكلامية غرضها تبليغ الرسالة، والرسالة شركة بين الملقي والمتلقي، فالملقي لابد أن يكون كلامه بليغاً ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾[1]، والمتلقي يلزمه القدرة على السماع والفهم ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[2]، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ﴾[3] فإن فقدهما حساً أو معنى فقد القدرة على الاستجابة. إننا نعلم يقيناً أن الله سبحانه وتعالى إذا قال شيئاً فإنه هو الحقيقة المطلقة، ولكن هل فهمنا لمعنى تلك الآية التي استنبطنا منها مفهوم الجمال هو فهم سليم؛ قد يكون وقد لا يكون، لأن المشكلة في قدرات الإنسان وليست في النص القرآني. ومع ذلك فإن المسألة تتوقف على خلفياتنا عمقاً ونوعاً، كما تتوقف على ذكائنا، والآيات التي تعضد ذلك المعنى كثيرة، ويؤيد ما نذهب إليه ما ورد في قوله

---

(١) الآية ٦٣ من سورة النساء.

(٢) الآية ٢٢ من سورة فاطر.

(٣) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.

تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً﴾[١] إن القدماء ومنهم الرازي الذي فهم اللقاح نقلاً عن ابن عباس بأنه لقاح للشجر وللسحاب فقال: هي من قولهم: "لقحت الناقة وألقحها الفحل إذا ألقى الماء فيها فحملت، فكذلك الرياح جارية مجرى الفحل للسحاب"[٢] وقد بقي معنى الآية غامضاً حتى اكتشفت الأسرار العلمية للظاهرة؛ فبينت أن (الفاء) في قوله تعالى (فأنزلنا) للسببية فتحتم أن يكون للواقح معنى غير معنى تلقيح الزرع، ومن ناحية أخرى يحتاج لبيان العلاقة السببية بين الرياح ونزول المطر، فللرياح أثر في تمهيد سبل الاتحاد بين كهربائية وكهربائية في سحاب وسحاب "فالسر يكمن في الجمع بين الكهربائية السالبة والموجبة في السحاب، فإذا ما اتحدت الشحنة الكهربائية الموجبة التي حملتها الرياح مع الشحنة الكهربائية الموجودة في الفضاء، يتكون مجال كهربائي يكون السبب في تحويل البخار إلى قطرات دقيقة من الماء، ومن ثم تتجمع وتكبر شيئاً فشيئاً، إلى أن تثقل وتنزل مطراً على الأرض، إذن فالسحاب وحده لا ينزل المطر ولابد له من تلقيح، وهذا التلقيح إنما يكون بواسطة الكهرباء الجوية التي تسببها الرياح[٣].

غير أن هذه الآية ليست مما يدركه العامة، إذ هي مما يكشف أسراره الذين أوتوا العلم فقط؛ فهي آية خاصة تكشفت أسرارها بحسب الإمكانات العلمية التي يملكونها، ومن ثم يبقى جانب بل جوانب من الإعجاز مستترة حتى تتوفر الأسباب العلمية والأكثر عمقاً التي يحيط بها المتلقي، وهكذا.

من صور التجاوز (الانزياح) في القرآن الكريم: فواتح السور وهي: الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن مثل: ألم.كهعص. حم.

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الحجر.

(٢) الرازي: التفسير الكبير: الجزء ١٩ ص ١٣٩.

(٣) محمد حسين هيتو: المعجزة القرآنية ص٢١١.

وقف المفسرون والبلاغيون والمتكلمون وقفة طويلة أمام هذه الأحرف الفواتح، واختلفوا اختلافاً بيناً في تحديد معناها، وبيان المراد بها، وأوردوا في ذلك أقوالاً كثيرة، وبعضهم أفرد لهذه الفواتح كتاباً خاصاً مثل: "ابن أبي الإصبع المصري، الذي ألف فيها كتابه "الخواطر السوانح في أسرار الفواتح"، والدكتور محمد رشاد خليفة في كتابه "دلالات جديدة في القرآن الكريم" وغيرهما.

ومهما قيل فيها تظل تجاوزاً (انزياحاً) من المعلوم المفهوم لخلق الله إلى المجهول الخفي الذي لا يستأثر بعلمه إلا الله.

التجاوز (الانزياح) وعلاقته بالمجاز:

يرتبط المجاز باللغة في مستواها العرفي، وهذا المستوى بطبيعته متعدد ومتغير. وقد كان من أكبر دواعي البحث ضرورة إعادة النظر في منهج قضية الإعجاز؛ وذلك لأن الباحثين على اختلاف مناهجهم، كانوا يتناولون بعض أوجه الإعجاز بشكل ممزق، يعتمد على الحقيقة في جانب، وعلى المجاز في جانب آخر.

يقول عبد القاهر: "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل ... وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[1].

إن كثيراً من التفاسير لم تستطع أن تفرق بين الحقيقة والمجاز، أو تجمع بينهما والتجاوز (الانزياح) هو الذي يمكن أن نعتمده في الخروج من هذا الجدل البلاغي،

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٠٣.

وتفسير تلك الظواهر التي هي فوق طاقة البشر؛ إذا أدركنا أن كلام الله لا يمكن أن نقيسه على كلام البشر.

تأمل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾[1]

أصل المعنى: (أعمال الذين كفروا هباء) لكن الآيات سلكت طريقاً آخر في النظم والأسلوب والمعاني، لتجسم الصورة وتعمق الإحساس، مستخدمة التجاوز (الانزياح) في التصوير تارة وفي بعض الألفاظ مثل (الظمآن)، (لم يجده شيئاً) تارة أخرى لأن (الظمآن) أشد حرصاً على الماء من الرائي، وتشبيه أعمال الكفار بالسراب الذي يخيل في الصحراء أنه ماء، ليتعلق به الظامئ الملهوف، وكلما جد في الوصول إليه اشتد ظمأه وتحرقه، حيث إذا جاءه لم يجده شيئاً، ويفجؤه هول رهيب.

ثم وقوع كلمة (شيئاً) مفعولاً به لقوله (لم يجده)، وكان يمكن أن يقول لم يجده ماءً ولكن كلمة (شيئاً) جعلته عدماً مطلقاً، ولم تكتف الآيات بالعدم المطلق، بل "ووجد الله عنده" والأصل وجد عذاب الله وجزاءه،ولكن التعبير أفاد أنه وجد ذا الجلال سبحانه، وفي ذلك من الرهبة ما فيه الرهبة خاصة أن هذا الكافر ينكر وجود الله، ثم تفاجئه هذه الحقيقة وهو في تلك اللحظات القاهرة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[2] فقد أوردها الرماني ضمن آيات في باب الاستعارة وعلق عليها بقوله: "أصل الاشتعال للنار وهو في هذا الموضع أبلغ، وحقيقته كثرة شيب الرأس، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايداً سريعاً صارت في الانتشار والإسراع كاشتعال النار"[3].

---

(١) الآية ٣٩ من سورة النور.

(٢) الآية ٤ من سورة مريم.

(٣) الرماني: النكت في إعجاز القرآن، ص ٨٨.

أما عبد القاهر الجرجاني فيقول: "أفلا ترى أنه قدّر في (اشتعل) من قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أن لا يكون الرأس فاعلاً له، ويكون (شيباً) منصوباً عنه على التمييز، لم يتصور أن يكون مستعاراً"[١].

فالجرجاني لا يعد الاستعارة معجزة إلا في سياق النظم، الذي يتحكم فيه النحو بصفة مطلقة، وأصل الكلام: اشتعل شيب الرأس على سبيل الاستعارة، لكن التجاوز (الانزياح) في العبارة القرآنية إلى ما جاءت عليه أعطى الجملة القرآنية سخاءً وإتقاناً في بنائها، ودقة في تصويرها لا يقدر عليه بشر.

والتجاوز (الانزياح) في قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[٢].

يقول الرماني في ذلك: "حقيقته إذا بدأ انتشاره وتنفس أبلغ منه لما فيه من الترويح عن النفس" وفيه أن بداية الصبح تشبه التنفس بالنسبة للوجود كله، وكأن الليل كان آخذاً بكظم الحياة عائقاً لنبضها، فجاء الصبح مؤذناً بالحياة والحركة. وفي قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾[٣] تجاوز (انزياح) في قوله (ضربت) لأن في كلمة الضرب حصول الذلة والامتهان والإذلال والنقص لهم، وإن كان المراد بالضرب هنا ضرب الخيمة، وكأن الذلة قد أحاطت بهم من جميع الجهات، والسياق هنا يثير من خبيئات الكلمات ومما هو مندس في معاطفها، مما يقتضيه من الألوان الملائمة والخيوط الجارية في نسج سياقه فالإذلال المخبأ في كلمة (ضربت) يظل بلا حدود.

ويبلغ التجاوز (الانزياح) درجة عالية في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[٤].

---

(١) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١٥١.
(٢) الآية ١٨ من سورة التكوير.
(٣) الآية ٦١ من سورة البقرة.
(٤) الآية ٥٥ من سورة الحج.

فكلمة (العقيم) حين تأتي وصفاً للعذاب، فهي إشارة إلى أنه ليس العذاب الذي تعقبه رحمة كعذاب العصاة، والعقم هنا انقطاع تام للخير، فليس المراد وصف العذاب بالألم، أو بأنه يهلك ويبيد فحسب، وإنما الإشارة إلى ما وراء ذلك، وأنه لا خير بعده البتة وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾[1] فقد أفادت كلمة (العقيم) معاني جديدة لم تكن مألوفة من قبل وفي ذلك تجاوز (انزياح)، لأن عاداً لم تُرَ لهم باقية.

وقد يكون التجاوز (الانزياح) للجمع بين الحقيقة والمجاز كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾[2].

يرى الذاهبون إلى الجمع بين الحقيقة والمجاز أن قوله "يسجد" أسند إلى فاعلين متعددين مختلفين في أجناسهم. وللسجود معنى حقيقي هو وضع الجبهة على الأرض ومعنى مجازي هو الخضوع، فأما أن يراد الأول وحده من جميع الفاعلين وذلك باطل وأما أن يراد المعنى المجازي من جميعها، وذلك غير قويم أيضاً لأن تخصيص قوله "كثير من الناس" بالذكر لا معنى له على ذلك، لأن الخضوع شامل للجميع، فتعيَّن إرادة المعنيين معاً"[3].

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[4].

قوله: "يصلون" أسند الفعل فيه إلى ضمير عائد في ظاهر النظم إلى اسم الجلالة وإلى ملائكته، مما يدل على أن الفعل صادر من الله ومن ملائكته، ولما اختلف الفاعلان اختلافاً جوهرياً، وجب أن يكون فعل كل منهما مخالفاً في دلالته فعل الآخر.

---

(١) الآية ٤١ من سورة الذاريات.
(٢) الآية ١٨ من سورة الحج.
(٣) كشف الأسرار للبخاري ١/٤٠
(٤) الآية ٥٦ من سورة الأحزاب.

فإن أفعال الله ليس كأفعال خلقه، والصلاة في اللغة الدعاء وهو معنى حقيقي وذلك أليق بصلاة الملائكة على النبي.

ويلزمه إجابة الدعاء، لأن الإجابة مسببة عن الدعاء فيكون معناها المغفرة، وهو أليق بصلاة الله تعالى فاجتمع في قوله (يصلون) معنيان: الدعاء، والمغفرة. الأول حقيقة والآخر لازم عنه[1].

وقد يكون التجاوز (الانزياح) لزيادة في التجسيم كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾[2].

فالوصف في الآيات حسيٌ بطبيعته، وهو سواد وجوههم، فاختار الله عز وجل له هيئة تجسمه "قطعاً من الليل مظلماً".

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾[3] فالتجاوز (الانزياح) في قوله: ﴿ثياب من نار﴾، ﴿يصهر ما في بطونهم﴾ ولا يخفى ما في ذلك من أثر على السامع والمتلقي؛ وبذا يحقق النص من الاستجابة ما لم يحققه وصف آخر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾[4].

هذا الوصف العجيب لأحوال الخلق في قوله: ﴿القلوب لدى الحناجر﴾ هو تجاوز (انزياح) يفيد بيان الشدة البالغة وكأن القلوب انخلعت من أماكنها ووثبت لدى الحناجر.

---

(١) شرح المنهاج للأصفهاني ٢١٧/١

(٢) الآية ٢٧ من سورة يونس.

(٣) الآيتان ١٩، ٢٠ من سورة الحج.

(٤) الآية ١٨ من سورة غافر.

ومن صور التجاوز (الانزياح) الذي لم تجرِ به العادة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمْ الطُّورَ﴾[٢].

فانتزاع الجبل ورفعه فوق رؤوس اليهود، شيء ليس واضحاً في التصور، إننا لم نرَ قط جبلاً قد اقتلع من مكانه، ورفع فوق رؤوس قوم كما حدث لليهود حين تمردوا على أحكام التوراة.

ولما كانت هذه الصورة غير مألوفة في مجاري العادات، صورها القرآن بصورة المظلة التي يألفها الناس. قال الرماني: "وهذا بيان قد أخرج ما لم تجرِ به العادات إلى ما قد جرت به العادة،وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصورة، وفيه أعظم آية لمن فكر في مقدورات الله تعالى عند مشاهدته لذلك،أو علمه به،بطلب الفوز من قبله"[٣]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[٤].

فقد قيل: بأن قوله (عصينا) ليس من منظور لسانهم بل هو من مدلول حالهم وفعالهم فألسنتهم قالت: سمعنا، وحالهم قال: عصينا، فيكون قوله (قالوا) مستعملاً في حقيقته في (سمعنا) وفي مجازه في (عصينا) جمعاً بين مقال اللسان ومقال الحال، وهو جمع بين الحقيقة والمجاز[٥]، ولم يأخذ بهذا كثير من أهل العلم[٦]، والذي أميل إليه أن القول بالجمع هنا أبلغ في تصوير عنادهم، ولن يتم ذلك إلا بالتجاوز (الانزياح) الذي جمع به الحق تعالى المعصية من الحقيقة والمجاز والأسرار التي لا تجتمع إلا بذلك الأسلوب الرباني.

---

(١) الآية ١٧١ من سورة الأعراف.
(٢) الآية ١٥٤ من سورة النساء.
(٣) ثلاث رسائل ص ٨٣.
(٤) الآية ٩٣ من سورة البقرة.
(٥) التحرير والتنوير ١/٦١٠.
(٦) معاني القرآن للفراء ١/٦١.

ومن صور التجاوز (الانزياح) الجمع بين الأضداد، حين وصف المجرمين يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى﴾[1].

هذا التجاوز (الانزياح) الذي يجمع بين (عدم الموت) و (عدم الحياة) فيخلق وضعاً آخراً لا يمكن تصوره، وهذا ما يثير دهشة المتلقي وتأثره.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾[2] فالغليان ارتبط في العادة بالقدور وأماكن صهر المعادن، وفي قوله تعالى: (يغلي في البطون) هو تجاوز (انزياح) عن أصل الكلام المعهود في كلام البشر.

وتأمل التجاوز (الانزياح) من الجمع إلى المفرد مخالفاً بذلك مراعاة النظائر، ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾[3]، وقد تكرر ذلك في غير موضع منها قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[4]، فعلى الرغم من دأب القرآن على رعاية التناسب بين الألفاظ، كما نراه في المناسبة بالإفراد بين الأعمى والبصير، والظل والحرور، والمناسبة بالجمع بين الأحياء والأموات، فإننا نجده خالف ما يقضي به التناسب بين الظلمات والنور لنكتة بلاغية، أو قصد خفي، أو الخروج على ما يتوقع السامع أو المتلقي، أو لمراعاة الإيقاع بين النور والحرور، أو غير ذلك.

ومن صور التجاوز (الانزياح) الالتفات ـ وهو كثير في القرآن الكريم ـ كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[5] تجد التفاتاً من المتكلم في قوله " إنا أعطيناك " إلى الغيبة في قوله (فصل لربك)؛ إذ الأصل فصل لنا.

---

(١) الآية ٧٤ من سورة طه.
(٢) الآيات ٤٣ ـ ٤٦ من سورة الدخان.
(٣) الآيات ١٩ ـ ٢٢ من سورة فاطر.
(٤) الآية ١ من سورة الأنعام.
(٥) الآيتان ١، ٢ من سورة الكوثر.

ولعل الغرض من هذا التجاوز (الانزياح) هو إبراز معنى التربية والتصريح بلفظ الرب حيث فيه حث على تحقيق الفعل المأمور به؛ لأن من تكلف بالتربية والرعاية فهو جدير بالعبادة، مستحق للصلاة المأمور بها.

ومنه قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1] حيث التفت من الغيبة في قوله: ﴿الذي أسرى﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿باركنا حوله لنريه﴾ ثم عاد إلى الغيبة في قوله: ﴿إنه هو السميع البصير﴾. وربما كان الغرض من هذا الالتفات إظهار مكانة المسجد الأقصى وحلول البركة حوله، وبيان أهمية الإسراء والغاية منه، والله أعلم.

ومن صور التجاوز (الانزياح) في القرآن الكريم إطلاق العام وإرادة الخاص كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾[2] يريد النبي صلى الله عليه وسلم. وإطلاق الجمع وإرادة الواحد كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾[3] وقد روى عن مناسبة هذه الآية قولهم: "كان رجل من القوم لا يمالئهم على أقاويلهم في النبي صلى الله عليه وسلم ويسير مجانباً لهم، فسماه الله طائفة وهو واحد"[4] فكانت تسمية الله للواحد طائفة تثقيلاً لميزان صاحب الحق في مواجهة الكثرة من أهل الباطل وامتداحاً لشجاعة وقوة إيمانه، وجعل منه إطلاق الواحد وإرادة الجمع كقوله عز وجل: ﴿هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ﴾[5]، أي: الأعداء.

ومنه ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ

(١) الآية ١ من سورة الإسراء.
(٢) الآية ٥١ من سورة المؤمنون.
(٣) الآية ٦٦ من سورة التوبة.
(٤) تأويل مشكل القرآن ص٢٨٣.
(٥) الآية ٤ من سورة المنافقون.

وَالْحَجِّ﴾[١]،فقد سئل النبي محمد صلى الله عليه وسلم ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يمتلئ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ.

السؤال عن العلة في تغيير منازل القمر، وجاء الجواب مبيناً الحكمة والفائدة من ذلك التغيير "قل هي مواقيت للناس والحج". فأخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بصرف السائل إلى غير ما يتطلب سؤاله، تنبيهاً على أن ما صرف إليه هو المهم له والأولى بحاله، وهذا ما أطلق عليه البلاغيون "الأسلوب الحكيم" وقد سماه عبد القاهر أسلوب المغالطة "وهي مغالطة أدبية حكيمة لطيفة؛ لأنها لم تقم على المكاشفة والمواجهة الصريحة بغير ما يترقب المخاطب بل قامت على الإخفاء واللطف والطرافة، مراعاة للأدب وتقدير المشاعر"[٢].

ومن صور التجاوز (الانزياح) التي تفيد الدهشة والغرابة على خلاف ما هو متوقع في السياق، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾[٣]، والغرابة تأتي في جواب الشرط **(فإذا خفت عليه فألقيه في اليم)** فالمتوقع أن يأتي جواب الشرط بما يتناسب والشرط على نحو (فاخفيه، اهربي به) إلى غير ذلك، لكن الجواب جاء على غير ما ينتظر المتلقي لإثارة الدهشة والتساؤل، وللتأكيد على أن حياة هذا الصغير وشأنه غير عادي، إذ هو من المرسلين الذين تكفل الله برعايتهم منذ نشأتهم.

ومنه ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾[٤] فقد استهل الآية بالفعل (تبيض) وأتبعه الفعل (تسود)، ثم بدأ في الآيات

(١) الآية ١٨٩ من سورة البقرة.
(٢) الإيضاح ١/١٦٠
(٣) الآية ٧ من سورة القصص.
(٤) الآية ١٠٦ من سورة آل عمران.

المفصلة بالفعل الثاني (اسودت) وعدل عن الفعل (ابيضت) خلافاً لما كان متوقعاً لدى السامع أو المتلقي. من هنا يكون اللجوء إلى التجاوز والانزياح أعلى رتبة، وأجل قدراً من اللجوء إلى الأساليب البلاغية المعهودة التي يسير عليها كلام البشر.

التجاوز (الانزياح) والتقديم والتأخير:

التقديم والتأخير ظاهرة تسترعي الانتباه في القرآن؛ إذ هي تخلو من الاعتباط تماماً على الرغم من أنها تتجلى في مظاهر متعددة؛ منها ما يتخلل الجمل التي تقوم علاقة ترابطها على عطف النسق، ومنها ما يتخلل جملاً تقوم علاقاتها على الإسناد، ومنها ما تتخلل نصوصاً أو قصصاً تقوم علاقتها على الترابط المنطقي.

ومن الأمثلة على عطف النسق قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾[1] "إذ قدم الأنعام على الأناسي لأن صلاحها سبب لصلاح حال العباد"[2] أو بالوجه الثاني الذي يتحكم فيه الإسناد كما في قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[3]؛ إذ قدم الخبر على المبتدأ لإفادة الاختصاص، فالترتيب يقع دائماً حسب قوة الأسباب.

ومن صور التجاوز (الانزياح) ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[4]؛ أي: رافعك إلي ومتوفيك، يؤكد ما نذهب إليه في قوله تعالى في هذا الموضوع ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ... * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾[5] فالوفاة حاصلة بعد الرفع وليس قبله.

---

(١) الآيتان ٤٨، ٤٩ من سورة الفرقان.
(٢) ابن القيم: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ص ٨٤.
(٣) الآية ٢٠ من سورة آل عمران.
(٤) الآية ٥٥ من سورة آل عمران.
(٥) الآيتان ١٥٧، ١٥٨ من سورة النساء.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾[1] على تفسير الأحوى بالأخضر وجعله نعتاً للمرعى؛ أي: أخرجه أحوى فجعله غثاء؛ ولعله آخره رعاية للفاصلة والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[2] والأصل سود غرابيب؛ لأن الغربيب الشديد السواد.

وقوله تعالى: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا﴾[3]؛ أي: بشرناها فضحكت، وإن سلمنا بأن الضحك بمعنى الحيض كما ورد في اللسان[4]؛ فيكون أيضاً انزياحاً في معنى الفعل الأصلي (حاضت) إلى (ضحكت) والله تعالى أعلم.

وهكذا تجد القرآن يتنقل بك سريعاً بين الماضي والحاضر، ويجوز بك أسوار الواقع إلى آفاق المستقبل، ويقدم ويؤخر على غير ترقب، ويعدل بقارئه من التكلم إلى الغيبة، ويخاطبه وهو يتحدث عن سواه إلى غير ذلك من وجوه التصرف، عما يجعله دائم التوقع لمغايرة في النظم، تتوالد بها المعاني، وتتكاثر بها الأغراض، كما نجده في قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[5] فقد استعمل الماضي في موضع المضارع، وقد استعمل المضارع موضع الماضي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾[6]، ووضع الأمر موضع المضارع في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[7]، وتعتبر القرائن هي الفيصل في تعيين تلك الدلالات التي أشرنا إليها والتي لا تخلو من انزياح.

---

(١) الآيتان ٤، ٥ من سورة الأعلى.
(٢) الآية ٢٧ من سورة فاطر.
(٣) الآية ٧١ من سورة هود.
(٤) اللسان: لسان العرب، مادة ضحك، ١٢/٤٥.
(٥) الآية ١ من سورة النحل.
(٦) الآية ١٥٢ من سورة آل عمران.
(٧) الآية ٥٤ من سورة هود.

ومن صور التجاوز (الانزياح) عطف الإنشاء على الخبر فبينما المتلقي مرهف السمع إلى خبر يتدبره، إذا بضرب من الإنشاء ينقله إلى موقع الحدث، مشاركاً في صنعه، مهماً في نتائجه وغاياته مثلما تراه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1] حيث فاجأ النظم الكريم سامعه الذي كان في موقف المشاهد المستغرق في أحداث القصة يجذبه جذباً شديداً، ويلقيه في خضم الأحداث ليلفي نفسه في مقام إبراهيم قائماً يصلي، تنفيذاً لأمر ربه، وترك أرباب الصنعة في حيرة ودهشة، يتساءلون كيف خرج القرآن عن المعهود من طرق البيان فعطف الإنشاء على الخبر، ولا يمكن أن نفسر ذلك بمعزل عن التجاوز (الانزياح).

تجاوز (انزياح) في شكل الكلمة القرآنية:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[2] فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث فالكلمتان الأوليان مؤتلفتان وقوله: "ألا إلى الله تصير الأمور" واضح أن الكلمة هنا تعني الجملة أو جزءاً من الجملة، وقد عد قوله: "صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض" كلمة، وهو بدل من قوله "صراط مستقيم" فالبدل من الكلمتين الأوليين ظاهر لأن البدل هو المبدل منه، فصراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض هو الصراط المستقيم ولكن الكلام جاء على شرط الفخامة وهو بيان أن الصراط المستقيم هو صراط الله.

ولهذا التجاوز (الانزياح) خصوصية ففي قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[3] فيه من صفات الحق الذي تدعو الشريعة إلى صراطه ملكيته لما في السموات وما في الأرض، فالذي يملك الكل لا يؤول الأمر إلا إليه.

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة البقرة.

(٢) الآيتان ٥٢، ٥٣ من سورة الشورى.

(٣) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة.

تجاوز (انزياح) في الظواهر الكونية:

﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[1] فالإعجاز هنا واقع في كون النار قد تغيرت طبيعتها تماماً، فصارت برداً وسلاماً بعد أن كانت محرقة، فخرقت العادة، وخرجت عن نظام السنن الكونية المتعلقة بها.

من صور التجاوز (الانزياح) الطريفة استخدام الحق سبحانه وتعالى لبعض الألفاظ في غير معناها المألوف وهو ما يسمى عند البلاغيين بالاستعارة التهكمية كقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[2]. ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[3]. ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4].

فالهداية والبشرى لا تكونان إلاَّ في الخير، وقد استخدمهما المولى في غير ذلك لنكتة بلاغية أو حكمة لا يعلمها إلا هو.

ومن صور التجاوز (الانزياح) استخدام أفعال بمعنى أفعال أخرى كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا﴾[5] فقد أريد بتفجير الأنهار كثرة المياه، فجاءت الأنهار جمعاً وفي ذلك تجاوز (انزياح) بالفعل (تفجر) عن معناه، والمقصود (تجري) لأن الأنهار لا تفجر، وإنما تجري من الأماكن المرتفعة بسبب الأمطار أو الثلوج، وإنما يكون التفجير للعيون.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي

(١) الآية ٦٩ من سورة الأنبياء.
(٢) الآية ٢٣ من سورة الصافات.
(٣) الآية ٤ من سورة الحج.
(٤) الآية ٢٤ من سورة الإنشقاق.
(٥) الآيتان ٩٠، ٩١ من سورة الإسراء.

بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[١]، وأوضح أن الآية تحث على العمل، ومراقبة الله في أمر اليتيم، حين أثارت عاطفة الأبوة بقوتها. فكلمة "تركوا" هنا منتزعة من أصل معناها إلى ما هو منه بسبيل، فالقوم لم يتركوا أولادهم بعد، لأن الذي ترك أولاده لا يخاف عليهم، لأن الخوف من لوازمه الحياة، ولا حياة لمن ترك أولاده. المراد إذن "شارفوا" وقد عبر عن المشارفة بالترك، وفي هذا تجاوز (انزياح) بالفعل عن معناه الذي وضع له، إلى معنى آخر للإيذان بقوة الملابسة فلا فرق بين مشارفة الترك وبين الترك نفسه لا سيما وأن المصير واحد الذي ينتظر بني البشر.

وفي هذا التجاوز (الانزياح) لفتة بارعة فقد نقل الأب من موقف المشارفة التي فيها حياة، وفيها أمل للتشبث بالبقاء إلى موقف الفناء والترك، وهي نقلة نفسية لحالة الأب الذي يرى أولاده الصغار متروكين ضائعين من غير راع، وفي قوله: "**ذرية ضعافاً**" فتؤكد معنى الضعف والضياع، فالتعبير عن الأولاد بالذرية وهو تجاوز (انزياح) يصف الطفولة في نعومتها وطراوتها وضعفها أدق وصف.

وفي قوله "**يأكلون أموال اليتامى**" تجاوز (انزياح) آخر ليس المراد به النهي عن الأكل فحسب، وإنما النهي عن الإنفاق من مال اليتيم في أي وجه من وجوه الإنفاق، لكنه جاء بلفظ الأكل لأنه أوجز وألذع لما فيه من الأكل الخسيس للتنفير، وفي قوله " ناراً " تجاوز (انزياح) وإذ هم يأكلون طعاماً يؤدي بهم إلى النار، وأن ذلك كائن لا محالة لمن يأكل مال اليتيم.

ومن صور التجاوز (الانزياح) وضع الواحد موضع الجمع في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾[٢] حيث أفرد الضيف مع اسم الإشارة للجمع هؤلاء، وللضيف صيغ جمع للقلة والكثرة جاء في لسان العرب: (أضياف، وضيوف، وضيفان).

---

(١) الآيتان ٩، ١٠ من سورة النساء.

(٢) الآية ٦٨ من سورة الحجر.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[١] والحكمة من الإفراد (للكتاب) بين جمعين هما (الملائكة والنبيين) لا يعلمها حقيقة إلا الله سبحانه وتعالى، وإن كان ذلك لا يمنع من الاجتهاد، وفي ظني أن لا خلاف بين أتباع الكتب السماوية حول الملائكة، وكذلك حول الأنبياء، ولكن الخلاف على صحة الكتب السماوية السابقة على القرآن، والتي نزلت على الأنبياء، وعدم سلامتها من التحريف، فجاء لفظ الكتاب مفرداً ليقصد به القرآن الكريم الذي لا يدخله الباطل، وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢] ويرجح ما ذهبنا إليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٣] وقد ورد هذا الإفراد أيضاً في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[٤]، إذ نجده يفرد (صديقكم) والمقصود بيوت أصدقائكم ومهما قيل في تعليل ذلك، تبقى ومضة التجاوز (الانزياح) هي الأقوى في النص القرآني.

ومن صور التجاوز (الانزياح) وصف المفرد بالجمع في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾[٥] فقد ترك الله تعالى وصف العجوز بالمفرد (غابرة) إلى جمعها (الغابرين) ومنه قوله تعالى أيضاً: ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ

(١) الآية ١٧٧ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٩ من سورة الحجر.
(٣) الآية ٨٥ من سورة آل عمران.
(٤) الآية ٦١ من سورة النور.
(٥) الآيتان ١٧٠، ١٧١ من سورة الشعراء.

الْكَافِرِينَ﴾[١] فقد أتى بخبر كان "من الكافرين" دون أن يقول: وكان كافراً وهذا اللون من التجاوز (الانزياح) تكرر بكثرة في القرآن الكريم.

ومن صور التجاوز (الانزياح) الخروج على المألوف في ترتيب الأفعال: كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾[٢] فقد جاء بالجوع مع العري، وبابه أن يكون مع الظمأ، وبالضحى مع الظمأ وبابه أن يكون مع العري، أما الحكمة من ذلك فالله تعالى أعلم وإن كان الجوع والعري يشتركان في الخلو، فالجوع خلو البطن من الطعام، والعري خلو الظاهر من اللباس، والضحى والظمأ يشتركان في الاحتراق، فالظمأ احتراق الباطن من العطش، والضحى احتراق الظاهر من الشمس، وهو ما يسمى في البلاغة بالترصيع. ومن صور التجاوز (الانزياح) في تناوب الحروف والكلمات ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾[٣] وردت الواو بمعنى (أو) التخييرية، وليست بمعنى العطف؛ إذ لو كانت كذلك لجاز الزواج بتسع نساء في الوقت نفسه، لأنها تبيح المثنى، زائد الثلاث، زائد الرباع، فالحاصل تسع نساء. ومع أن تناوب حروف الجر وتعاقبها قضية خلافية بين الكوفيين والبصريين إلا أن حرف الواو في الآيات السابقة جاء بمعنى حرف آخر كما أوضحنا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾[٤] وأنت لا تقول رفثت إلى المرأة وإنما تقول رفثت بها أو معها: لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء، وكنت تعدي أفضيت بإلى كقولك: أفضيت إلى المرأة، جئت بالي مع الرفث

(١) الآية ٣٤ من سورة البقرة.
(٢) الآيتان ١١٨، ١١٩ من سورة طه.
(٣) الآية ٣ من سورة النساء.
(٤) الآية ١٨٧ من سورة البقرة.

إيذاناً وإشعاراً أنه بمعناه"[١]، ذلك الذي يذهب إليه "ابن جني" مؤداه أن التضمين مجاز لغوي إذ لا يقع إلا لمناسبة بين المعنيين، وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[٢] تحتمل معنيين الأول المحتوم، والآخر المكتوب المسطر دل على الأول قوله "يمحو" فكأنه قيل: لكل أجل أمد محتوم مكتوب مسطر، فالأجل متصف بأمرين: التحديد والتسطير، ودل على الوصفين كلمة واحدة هي "كتاب".

وفي قوله تعالى: ﴿يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾[٣] فقد وضع النداء موضع التعجب فالمعنى (يا لها من حسرة) لأن الحسرة لا تنادى، والمعنى على التعجب.

التعاور ما بين أوزان القلة والكثرة: ومن صور التجاوز (الانزياح) في القرآن الكريم استخدام بعض أوزان القلة في الدلالة على الكثرة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾[٤] وقوله كذلك: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[٦] فالكلمات: أقلام، وأمواتاً، وأضعافاً، وزن كل منها أفعال وهي من الأبنية التي اعتبرها الصرفيون أبنية قلة، في حين جاءت دلالة كل منها على الكثرة.

أما "أضعافاً" فهي الصفة الوحيدة في جمع الضعف، فتكون للقلة والكثرة معاً، ومن ألفاظ القلة التي استخدمت بمعنى الكثرة الأسماء المختومة بالألف والتاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾[٧]، ومنه قوله

---

(١) الخصائص ت/ محمد علي النجار ٣٠٨/٢ بيروت، دار الهدى.
(٢) الآية ٣٨ من سورة الرعد.
(٣) الآية ٣٠ من سورة يس.
(٤) الآية ٢٧ من سورة لقمان.
(٥) الآية ٢٨ من سورة البقرة.
(٦) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة.
(٧) الآية ٣٥ من سورة الأحزاب.

تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[١]، فالداعون من عباد الرحمن كثيرون، ولكنه قابل كثرتهم بجمع القلة "أعين" مع أن للعين صيغة كثرة هي "عيون".

ومن صور التجاوز (الانزياح) استخدام جمع العاقل لغير العاقل وجمع القلة لجمع الكثرة، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[٢]، فقوله (ساجدين) هو في الأصل لجمع القلة العاقل في حين استخدمه لغير العاقل من النجوم والأقمار والكواكب فعدد الساجدين تجاوز العشرة التي هي نهاية أعداد القلة فكان مقتضى الظاهر أن يعبر بصيغة الكثرة كالسجد والسجود، وهما مستعملان في الذكر الحكيم.

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ﴾[٣] فعدل عن استخدام (ما) لغير العاقل بـ (من) للعاقل.

ومهما قيل عن هذا التجاوز بأنه سجود تطامن وتذلل أو غير ذلك فإنه يبقى تجاوزاً (انزياحاً) عما هو مستخدم في الأصل.

ومن صور التجاوز (الانزياح) استخدام جمع الكثرة مكان جمع القلة ومنه ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٤] فقد ورد عن ابن عباس أنه قال: "أحيا عليه السلام أربعة أنفس عازر، وابن العجوز، وابنة العاشر، وسام بن نوح"[٥]،

---

(١) الآية ٧٤ من سورة الفرقان.
(٢) الآية ٤ من سورة يوسف.
(٣) الآية ١٨ من سورة الحج.
(٤) الآية ٤٩ من سورة آل عمران.
(٥) روح المعاني ـ الألوسي البغدادي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بدون طبعة وتاريخ

والأربعة من أعداد القلة، وقد عدل عن استخدام جمع القلة أموات أو ميتين إلى جمع الكثرة (الموتى).

ومنه ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾[1] فعدل عن استخدام جمع القلة (أقراء) إلى جمع الكثرة قروء، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾[2]،فقد ميز السبع بجمع الكثرة "سنابل" دون جمع القلة " سنبلات " خلافاً لما يقضي به الظاهر، ومنه ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾[3].

فقد وصف الله الفتية ما بين أربعة وثمانية وهم من أعداد القلة وقد وصفهم المولى عز وجل بجمع القلة في قوله (أيقاظاً)، لكنه عدل إلى جمع الكثرة (رقود) وكان يمكن أن يستبدل صيغة الكثرة (رقود) بجمع السلامة (راقدون) الذي هو للقلة، ومن صور التجاوز (الانزياح) الرائعة ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ﴾[4] حيث كانت الشهادة تتعلق بالعرض، ويترتب عليها إزهاق نفس المشهود عليه فقد عدل الحق سبحانه وتعالى عن صيغة القلة الملائمة للعدد أربعة (أشهاد) كما عدل أيضاً عن صيغة الكثرة " شهود " وأتى بصيغة تتناسب والحرص في الأداء والأمانة في نقل الشهادة، والله أعلم.

ومهما قيل أن هناك فروقاً بين صيغ القلة والكثرة، أو لا فرق بينها كما يذهب إلى ذلك الدكتور إبراهيم أنيس وغيره. إنَّ العرب قد تستعمل هذا مكان تلك،أو العكس لحكمة أو لنكتة بلاغية، أو غير ذلك من التفسيرات،تبقى في النهاية دليلاً واضحاً على

(١) الآية ٢٢٨ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٢٦١ من سورة البقرة.
(٣) الآية ١٨ من سورة الكهف.
(٤) الآية ٤ من سورة النور.

أن النظم القرآني نظم ليس فيه كلام البشر، لأنه لا يسير على خطاهم، بل هم الذين أخذوا منه على قدر ما تقبل عقولهم وأفهامهم، وعجزوا عن فهم الكثير الذي سيتكشف بعض أسراره، ليكون المعجزة الخالدة على مر الأيام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويكون الملك يومئذٍ لله.

ومن صور التجاوز (الانزياح) مخالفة قواعد النحو المستخدمة، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1] المعروف أن العدد (عشر) يخالف المعدود وهو مفرد فالأصل (عشرة أمثالها).

ومنه تأنيث الفردوس وهو مذكر في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2] والأصل (هم فيه خالدون).

التجاوز (الانزياح) في الشكل وأثره على الإيقاع:

لم يقتصر التجاوز (الانزياح) على مضمون النص القرآني، بل تعداه إلى الشكل، فالشكل والمعنى لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض بصورة مطلقة، وإن للشكل أثره الواضح في الإيقاع.

وقد اهتم الرافعي بالطاقة الصوتية في القرآن، فجعلها سبباً أساسياً في ظاهرة الإعجاز خاصة بالنسبة للعرب، إذ "لما قُرئ عليهم، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله ألحاناً لغوية رائعة، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها من توقيعها، فلم يَفُتْهُمْ هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم"[3] وهكذا نجد البلاغة عند الرافعي تقوم على الصوت أي على ترتيب الحروف.

---

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ١١ من سورة المؤمنون.

(٣) الرافعي: تاريخ آداب العرب ص ٢١٤

من ذلك الإيقاع الموسيقي لسورة النجم ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * ... * أَفَرَأَيْتُمْ اللاّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمْ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[1]، "فلو أنك قلت: أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة. لاختلت الفاصلة ولتأثر الإيقاع، وكذلك لو قلت: تلك قسمة ضيزى. بحذف كلمة (إذاً) لاختل الإيقاع المستقيم. ولا يعني هذا أن كلمة "الأخرى" وكلمة "إذن"زائدتان لمجرد الفاصلة أو التوازن فحسب بل لهما بلا شك أغراض معنوية خاصة"[2]، فالكلمتان (الأخرى)، و(إذاً) زيدتا على أصل التركيب اللغوي، وبذلك تحقق ما قصد إليه الحق سبحانه وتعالى من خلال التجاوز (الانزياح) إلى ما يحقق الغرض وهو الإيقاع الذي يستهوي السامع.

وكما في قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾[3] وهي تماشى شطراً وقوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾[4] وهي تماشي بيتاً. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾[5] وهي تماشي بيتاً، وقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[6] فيه تقدير مستفعلن مفاعلن وكان أبو نواس كثيراً ما يضمن شعره قرآناً. ونفى أهل الورع أن يكون في القرآن شعر ومنهم الباقلاني، وقال البعض: إن ذلك يقع اتفاقاً كما يقع في الكلام العادي كما في قولهم: " أكرموا من لقيتم من تميم " ومهما يكن الأمر فقد تحقق التجاوز (الانزياح)، وتحقق بذلك الإيقاع. وعند كتابة هذه الآيات الكريمة من

---

(١) الآيات ١-٣، ١٩-٢٢ من سورة النجم.
(٢) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، مرجع سابق، ص ٨٦ بتصرف.
(٣) الآية ٣٦ من سورة المؤمنون.
(٤) الآية ١٣ من سورة سبأ.
(٥) الآية ١٨ من سورة فاطر.
(٦) الآية ١ من سورة المسد.

سورة النحل على هذا الشكل: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

يتضح لنا أن الآيات السابقة قد التزمت بقدر أكبر من الإيقاع باستخدامها بعض التفعيلات المتفاوتة في كل فاصلة، مما يزيد في قدرة النص على الحركة والتعامل مع اللغة القائمة على الإيقاع فأخذ النص يتحرك نفسياً وموسيقياً وفق مدى الحركة التي تموج بها الفاصلة وبهذا أصبح الإيقاع القرآني توقيعات نفسية تنفذ إلى صميم المتلقي لتهز أعماقه في هدوء ورفق.

وهذا التجاوز (الانزياح) نحو الإيقاع لا يعني أن للقرآن علاقة بالشعر الحر، بل إن الشعر الحر أو شعر التفعيلة قد يكون هو الذي تأثر بإيقاع القرآن ووقفاته وفواصله.

---

(١) الآيات ٥ ـ ١٨ من سورة النحل.

الخاتمة:

يدور البحث حول تكسير الهياكل الثابتة للغة، وقواعد النحو، وقوانين الخطاب، وأثر الحقيقة والمجاز في قضية الإعجاز، ذلك أن الباحثين على اختلاف مناهجهم، كانوا يتناولون بعض أوجه الإعجاز بشكل ممزق، يعتمد على بعض النواحي البلاغية، أو النحوية التي لا تنجو من ملابسات واختلافات، كالتفريق بين الحقيقة والمجاز، أو الجمع بينهما، أو مخالفة قواعد النحو أو اللغة في النص القرآني الذي شُكلت بنيته التركيبية تشكيلاً خارقاً للعادة التي ألفناها في الأساليب التعبيرية عند البشر، لأن النص القرآني محكوم بالوحي، وليس بالخبرة والعقل، فهو لا ينطق عن الهوى.

من هنا يكون التجاوز (الانزياح) هو الذي يمكن أن نعتمده، في الخروج من هذا الجدل البلاغي والنحوي، باعتبار أن النص القرآني يستخدم اللغة استخداماً خاصاً يصبح للكلمات فيه معان وظلال وسحر، من خلال الطاقة والعاطفة والحركة التي يسبغها المبدع سبحانه وتعالى عليها، وكأنها تخلق به خلقاً جديداً، وتصير كوائن أخرى للوصول بالنص القرآني إلى توازن يستحضر خطاباً متعدد القيم.

العبارة القرآنية هي سحر اللغة وكيمياؤها، لا يمكن أن تستنفد حيلها وإمكاناتها في خلق أوضاع تعبيرية متجددة.

النص القرآني ينفرد بالقدرة على تصنيف الكلام وتوظيفه من خلال انفتاح الدلالة وما يمكن تسميته بالتجاوز (الانزياح). فالله سبحانه وتعالى وحده القادر على كسر المساحة التي يتحرك في رحابها الخطاب العادي، فيتحقق للنص القرآني خرق العادة، والانعتاق من النمطية.

تحتاج التعبيرات الاصطلاحية الشائعة في بلاغتنا العربية ـ لاسيما في القرآن الكريم ـ إلى من يلم شعثها، وينظم أطرافها على ضوء دراسات جديدة بما يعرف بانفتاح الدلالة، أو انفتاح النص القرآني،وما يمكن تسميته بالتجاوز (الانزياح) الذي سيجنبنا كثيراً من الخلاف حول تلك القضايا، أو الخروج من هذا الجدل البلاغي والنحوي.

للمتلقي دور كبير في فهم الخطاب القرآني ومن ثم فهم الإعجاز القرآني، فالنص القرآني شركة بين الملقي والمتلقي.

وإذا كانت النواحي البلاغية تصلح لفك أسرار اللغة وقيودها في حياتنا الأدبية والشعرية بمحافظتها على قوالب النظام اللغوي. فإن التجاوز (الانزياح) من خلال أبعاده ومفاهيمه هو القادر على تجلية تلك الظواهر، التي ما زالت تشكل مثار خلاف وجدال بين الدارسين لنواحي الإعجاز البياني في القرآن الكريم. فالتجاوز (الانزياح) يصنع تلاحماً بين الصورة ومدلولها الحقيقي، من خلال تجدد النص الديني، بما يتناسب وتطورات العصر، ومستجدات الإنسان المؤمن في كل عصر. وهكذا يمضي في مراعاة التناسب بين الحقيقة والمجاز، وبين الألفاظ إفراداً وجمعاً وتقديماً وتأخيراً، ويقيم من القرائن الدالة والروابط ما لا يترك معه لبساً فيجمع بين وضوح الدلالة وجمال التناسب، فإن القرآن متى نطق بكلمة أو استخدم أسلوباً أو نطق بلغتين فلا حاجة بنا إلى الاستشهاد على صحته أو جوازه، بل بورودها في القرآن الكريم يستشهد على ما سواه من لغة البشر. وإن على الدارس للنص القرآني ألا يقف عند المفردات اللغوية، وإن الجهد يجب أن ينصرف إلى دراسة المفردة القرآنية من خلال وصفها في السياق لأنه لا يمكن أن يكون هناك إبداع بعيداً عن الطبيعة التركيبية للغة. وقد قمت باختيار بعض الآيات القرآنية التي بها درجة تجاوز (انزياح) غير عادية وأقمت عليها الدراسة ولا

يزال ميدان البلاغة والنقد يزخر بالآراء والمذاهب التي تتهالك ويبتلع بعضها بعضا ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ صدق الله العظيم

ولعل فيما قدمنا دلالة معينة تساعد في توضيح هذه الدراسة وتعين الباحثين المخلصين على مواصلة البحث والدراسة في هذا الجانب لننطلق إلى اكتشاف أسرار النظم القرآني. وها أنذا قد بدأت وأسأل الله أن أكون قد أحسنت البدء، وألا يحرمني أجر المجتهدين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أهم المصادر والمراجع:

أولاً ـ المصادر والمراجع العامة

١- القرآن الكريم

٢- لسان العرب لابن منظور الإفريقي

٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ د. محمد فؤاد عبد الباقي

ثانياً ـ الكتب والمراجع:

٤- الارتباط بين اللغة والدين، د. كامل جميل ولويل ـ مؤسسة المنار، دبي، الإمارات، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

٥- أساليب الشعرية، د. صلاح فضل، دار قباء للطباعة، العاشر من رمضان، القاهرة، ١٩٩٨م

٦- أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، مكتبة الجمهورية القاهرة، بدون تاريخ.

٧- إعجاز القرآن، الباقلاني، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٥م

٨- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

٩- الإيضاح في علوم البلاغة، مختصر تلخيص المفتاح، الخطيب القزويني، دار الجيل، بيروت ـ لبنان.

١٠- بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، الشركة العربية للطباعة والنشر لونجمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م

١١- البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان للسيوطي، د. السيد الجميلي، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٩٣م.

١٢- بلاغة النظم القرآني، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ـ مطبعة الحسين، القاهرة، ا الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

١٣- البنيات الأسلوبية، د. مصطفى السعدني، منشأة المعارف، الإسكندرية.

١٤- بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، باريس، نشر فلماريون، ١٩٦٦م.

١٥- تاريخ آداب العرب ـ مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، ط٤، ١٩٧٤م

١٦- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن قتيبة، دار التراث، ط٢، ١٩٧٣م

١٧- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، بدون تاريخ.

١٨- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الثامنة، ١٩٨٣م.

١٩- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر،الطبعة الثالثة ١٩٨٥م.

٢٠- ثلاث رسائل في أساليب إعجاز القرآن، د. سليمان أبو عزب،الطبعة الأولى، مطبعة المقداد، غزة، ١٩٩٩م.

٢١- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرماني، الخطابي، الجرجاني، د. محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة.

٢٢- جدلية الإفراد والتركيب، د. محمد عبد المطلب، مكتبة الحرية الحديثة، ١٩٨٤م.

٢٣- الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة.

٢٤- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق د. محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٤م.

٢٥- روح المعاني، الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بدون طبعة وتاريخ

٢٦- شرح المنهاج، الأصفهاني، تحقيق عبد الكريم النملة، مكتبة الرشد، الرياض، طبعة ١٤١٠هـ.

٢٧- نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين بن حمزة، ط١، بيروت دار الفكر للطباعة والنشر ١٩٨٤م.

٢٨- كشف الأسرار، البخاري، دار الكتب العلمية، ط١ بيروت ١٩٩٧م.

٢٩- مبادئ النقد الأدبي، ريتشاردز، ترجمة د. مصطفى بدوي، المؤسسة المصرية العامة للنشر.

٣٠- مدخل إلى علم الجمال الأدبي، د.عبد المنعم تليمة،دار الثقافة للطباعة والنشر،القاهرة، ١٩٨٠.

٣١- معاني القرآن الكريم، الفراء، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، بدون طبعة وتاريخ.

٣٢- المعجزة القرآنية، محمد حسين هيتو.

٣٣- من أسرار التعبير القرآني، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٩٦م.

٣٤- من بلاغة القرآن،د.محمد علوان،المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.